مقدمة

الشركات والأسواق والمستثمرون والأفراد من النخب، كلهم يتعولمون. والعولمة التي كثيراً ما يحتفي بها علماء الاقتصاد، والحكماء، ومديرو الشركات، وقادة أغنى أمم العالم، هي في الواقع «عولمتهم من أعلى».

والعولمة من أعلى يمكن وينبغي أن تتصدى لها «العولمة من تحت» التي يتواصل من خلالها الناس الذين يشكلون أساس المجتمع الريفي في سائر أنحاء العالم لتحسين احتياجاتهم ومصالحهم الخاصة في مجرى العولمة. ولقد بدأت تنشأ حركة تجسد العولمة من تحت. وتضامن المجتمع الريفي لهذه الحركة على مستوى العالم، له قدرة تغيير العالم.

ثمة دراسات مختلطة تحظى بها العولمة. ويبدو أن تعاظم الاتصالات بين سكان العالم يَعِدُ بقيام «قرية عالمية» يمكن التخلي فيها عن عداوات الماضي المدمرة، ليحل

محلها التعاون على النطاق العالمي بما يغني التنوع. إن الداعين إلى عالم خالٍ من الحواجز الاقتصادية الوطنية يرون أن ذلك سيجعل كل إنسان، بمن في ذلك الناس والبلدان التي في القعر، في حال أفضل.

ولكن الواقع الحقيقي لعولمة نهاية الألفية الثانية لم يحقق هذا الوعد. على العكس، فقد أعطانا أعداداً من الفقراء تفوق ما عرفه العالم في أي زمن سابق وزاد الأخطار التي تتعرض لها الأحوال البيئية والتي تعتمد عليها حياة البشر. وقد دفع هذا الواقع بالكثيرين إلى الخوف من فقدان وسائل الحماية الاجتماعية والبيئية التي اكتسبوها بشق النفس، بل وفقدان الحكم الذاتي ذي المعنى.

إن العولمة من فوق حركة مقاومة على نطاق عالمي. ومع أن هذه الحركة ما برحت تجمع صفوفها منذ سنوات، فإن كثيرين من الناس لم يعلموا بوجودها لأول مرة إلا في أواخر سنة 1999، وذلك عندما أرغم عشرات الآلاف من المتظاهرين، احتجاجاً في مدينة سياتل، اجتماع منظمة التجارة العالمية الذي كان منعقداً في هذه المدينة على الانفضاض. وقد ذكرت جريدة نيويورك تايمز في نبأ نشرته آنذاك:

«إن وفرة عدد المحتجين المفاجئة في مدينة سياتل،

والذين هم من منتقدي منظمة التجارة العالمية، يؤشر إلى انبثاق ائتلاف جديد عالي الصوت.. (من ضمنه) ليس فقط عمال صناعة الفولاذ وعمال صناعة السيارات، بل أيضاً طلاب الكليات وأعضاء الجماعات الكنسية الذين يحتجون على استغلال العمال في أوضاع سيئة، وجماعات حماية المستهلك، وأعضاء نادي سييرا، وأصدقاء الأرض، والجمعية الإنسانية[1]».

ثم إن هذه الحركة ليست حالة وحيدة أو ظاهرة محلية. فقد وصفتها إيلين برنارد Elaine Bernard، مديرة البرنامج النقابي في هارڤارد، في مقالة نشرتها في جريدة واشنطن پوست، على النحو الآتي:

«إن اجتماع منظمة التجارة العالمية كان مجرد المكان الذي برز ظهور هؤلاء الناس فيه على شبكة رادار العامة من الأمريكيين. فقد كانت الحركات الاجتماعية في سائر أنحاء العالم قد تواصلت مع الشبكات التي تمثل المجتمعات الدنيا، وهذا التواصل أصبح ممكناً بفضل سرعة الاتصال المذهلة في عصر الإنترنت»[2].

(1) ستيڤن غرينهاوس «بعد سياتل، النقابات تشير إلى الكفاح المستدام ضد التجارة» نيويورك تايمز، 6 كانون الأول (ديسمبر) 1999، ص A28.

(2) إيلين برنارد «المعركة في سياتل ـ ما سبب كل ذلك؟» واشنطن پوست، 5 كانون الأول/ديسمبر 1999 ص B1.

obeikandl.com

ترى هل هذه الحركة عديمة الجدوى، أم أنها قادرة فعلاً أن تؤثر في مجرى العولمة؟ الحجة التي يطرحها هذا الكتاب هي أن في قدرة الناس في الحقيقة أن يمارسوا السيطرة على العولمة، وإنما فقط بواسطة التضامن الذي يجتاز حدود الدول، والهويات، والمصالح الضيقة. والعولمة من أعلى إلى أدنى، التي تقودها الشركات الكبرى، لا يمكن مجابهتها بصورة فعالة إلا بالعولمة من تحت.

من حسن الحظ أن جانباً كبيراً من الحركة التي تنبثق الآن رداً على العولمة إنما يتسم تماماً بهذه السمة. وقد كتب ناعومي كلاين في جريدة نيويورك تايمز يقول:

> «إن المحتجين الذين تظاهروا في مدينة سياتل قد لسعتهم «بقة» العولمة تماماً كما لسعت المحامين المدافعين عن التجارة في فنادق سياتل.. وهم يعرفون ذلك. إنها حركة ذات أوسع ذهنية دولية وارتباط عالمي، عرفها العالم»[3].

مع ذلك، فإن هذه الحركة تجمع الضدين في نظرتها إلى العولمة، ذلك أن جميع المشاركين فيها ملتزمون معاً

(3) ناعومي كلاين «ثوار يبحثون عن قواعد» نيويورك تايمز، 2 كانون الأول/ ديسمبر 1999.

بمقاومة العولمة في شكلها الراهن، ولكنهم مختلفون على البديل الذي يجب أن يحل محلها. بعضهم يهدف إلى التراجع عن العولمة واستعادة أنظمة اقتصاد الماضي الوطنية، سواء أكانت حقيقية أم متخيلة، وبعضهم الآخر يطرح أجندة إصلاحات معتدلة لتصحيح أسوأ تجاوزات العولمة. وآخرون مستعدون لتبني فكرة عالم أشد ترابطاً وأقل تقييداً وطنياً، بشرط أن يكون عالماً يختلف اختلافاً جذرياً عن «العولمة القائمة فعلياً» الذي يجري تكوينه من أعلى.

ونحن من الذين يؤمنون بأن هذه الحركة لا يمكن أن تنجح إلا إذا تطورت وانتقلت من المقاومة والإصلاح والاستعادة إلى التحول، على أن يكون تحولاً متجذراً في المقاومة الحالية التي تقوم بإصلاح المؤسسات على كل مستوى، وتستعيد عناصر الديموقراطية والتنوع والتوازن البيئي التي دمرتها العولمة من أعلى. إن تحولاً من هذا القبيل يتطلب استراتيجية متعددة المستويات وبرنامجاً لفرض قواعد جديدة على الاقتصاد العالمي مع نقل الثروة والسلطة إلى الناس العاديين، أي دمقرطة اقتصادية وسياسية على النطاق العالمي.

ما الغاية من هذا الكتاب؟

إن انبثاق حركة اجتماعية على نطاق عالمي هدفها العولمة من تحت، يغير أحوال العمل البشري، فهو يفتح إمكانيات جديدة لمعالجة مشاكل الفقر، والقهر، والحرب، وتدمير البيئة، وهي مشاكل قائمة منذ زمن طويل. ولكن الشروع في إنشاء حركة شيء، وتغيير العالم شيء آخر. إن ماهية هذه الإمكانيات الجديدة وكيفية الإفادة منها هما حالياً موضوع بحث دولي نشط. والقصد من هذا الكتاب هو أن يشكل إسهاماً في ذلك الحوار. فهو يطرح منظوراً نعتقد أن كثيرين في هذه الحركة يشاطروننا إياه، وهذا ما يبدو بصورة ضمنية في ما تفعله الحركة واقعياً. وغايتنا الأولى هي أن نجعل هذا المنظور يبدو واضحاً ويبين الأمور التي ينطوي عليها ضمنياً بحيث يمكن أن نجعل منها موضوع نقد وتحسين.

تقليدياً، القيم الأساسية هي المجال الذي يختص به رجال الدين. والسياسة هي المجال الذي يختص به المسؤولون الحكوميون، والاستراتيجيا هي المجال الذي يختص به كبار رجال القوات المسلحة. أما في أي حركة اجتماعية، فيجب أن يتصرف الناس بمبادرة منهم ووفق قناعتهم. ولذلك، فإن القيم، والسياسة، والاستراتيجيا لا

يمكن أن تنتقل من أعلى إلى أدنى بواسطة حزام دوّار، وإنما يجب أن تكون شيئاً يصنعه الناس في مجرى تقرير أعمالهم اليومية.

ما من حركة تخرج إلى حيز الوجود وهي تعلم مسبقاً بماذا تفكر، وماذا تريد، وكيف ستحقق أهدافها. فهذا يتطلب منها نهجاً من العمل التجريبي ومن الفكر والبحث.

والحركة، أياً كانت، تطور فهماً ذاتياً، سواء أكان هذا الفهم مجموعة افتراضات مضمرة يتم التعبير عنها بصورة أولية في العمل، أو كان نظرية ذات صيغة معينة، أو كان أمراً بين هذين الأمرين. والقصد من هذا الكتاب هو أن يشكّل إسهاماً في الفهم الذاتي للحركة التي نشأت رداً على العولمة. ويقدم الكتاب منظوراً لصفة هذه الحركة الناشئة، وقيمها، وأهدافها، واستراتيجيتها. ونحن نحاول أن نضعه في سياق فهم واسع للحركات الاجتماعية، وكيف كانت نشأتها، وكيف تحقق أهدافها، مستفيدين من تاريخ الحركات السابقة ومن خبرتنا الخاصة كناشطين في الحركة الحالية وفي بضع عشرات من الحركات السابقة. ونحن نحاول أيضاً أن نرسم خريطة الأرض التي تعمل الحركة على سطحها، وأن نبين كيف يمكنها تفادي الأفخاخ الكثيرة وهي تتحرك نحو أهدافها. ومهما كانت نقاط الضعف في

مقاربتنا للموضوع، فإننا نأمل أن يضع هذا الكتاب تعريفاً لمجموعة من المسائل التي ينبغي للحركة أن تبحثها.

كان تأليف هذا الكتاب بُعَيْد معركة سياتل، وهو يعكس أهمية التغييرات التي حدثت في العمل السياسي للعولمة في نهاية الألفية المنصرمة. ومع ان اهتماماته عالمية الطابع، فإن تركيزه يعكس دون ريب تجربة المؤلفين ومحدودياتهم ليس فقط باعتبارهم أمريكيين، بل باعتبارهم سكاناً في جنوب انكلترة الجديدة (نيو انغلاند) التي كانت لها تجربتها الخاصة في مجال العولمة.

وفي الوقت الذي نحاول فيه الإفصاح عن منظور للحركة بكاملها، بل وعلى نطاق واسع، لجميع الناس الذين يشعرون بالحاجة إلى تغيير مجرى العولمة، إلا أننا نود التأكيد أن لا وجود لموقع مميز للنظر منه إلى هذا الكامل. إن كل مشارك في الحركة ـ فرداً كان أو مجموعة من الناس ـ يتحتم عليه أن يرتب قطع الأحجية بما يناسبه. وحقيقة الأمر، إن إحدى السجايا الأساسية للحركة يجب أن تكون حق كل إنسان في المشاركة في الحوار الاجتماعي الدائر حول المسائل الكبرى المتعلقة بالعالم ومستقبله.

ويعكس الكتاب، وجهة النظر المنطلقة من موقفنا المساعد والتي تحده. مهما كانت مواقع الناس المتعاونة

محدودة، فإن بإمكانهم أن يتعلموا من بعضهم بعضاً، وبإمكانهم أن يتكيفوا مع بعضهم بعضاً وأن يأخذوا بوجهات نظر بعضهم بعضاً. لقد حاولنا أن نفعل ذلك، ولكن جهدنا هو لا محالة جهد غير كاف. ونأمل صادقين أن يقوم الآخرون بنقد الكتاب وتصحيح ما ورد فيه من خلال وجهات نظرهم، التي تأخذ بالاعتبار احتياجات الآخرين وآراءهم.

وليس من أهداف الكتاب عرض مقدمة لموضوع العولمة ولا عرض تحليل كامل للعولمة. (تحليلنا الأعم للعولمة قدمناه في كتاب «قرية عالمية أم نهب عالمي»)[4]. وليس قصدنا أن نقدم مرشداً شاملاً للتغيير الاجتماعي. إن تركيزنا هو على الحركات متعددة القوميات ومتعددة القضايا التي أخذت تنبثق عند نهاية الألفية رداً على العولمة من فوق. وهذه الحركات لم تتجاوز بعدِ المراحل المبكرة للتطور، وسيبهجنا إذا ما نمت وتغيرت بسرعة إلى حد تجاوزها الكثير مما قيل في هذا الكتاب. وفي هذه الأثناء

(4) جيريمي بريشير وتيم كوستيلو، «القرية العالمية أم النهب العالمي»: الإعمار الاقتصادي من تحت إلى فوق، الطبعة الثانية، (كامبردج، مطبعة ساوث اند، 1998). لقراءة مقدمة للموضوع، راجع أيضاً ساره أندرسون، وجون كاڤاناغ، وتيالي «الدليل الميداني للاقتصاد العالمي» (نيويورك: المطبعة الجديدة، 2000).

نأمل أن يثبت هذا الكتاب فائدته لكل من يناضل ضد العولمة من فوق.

فصول الكتاب

فصل «العولمة وشبحها» يقدم عرضاً مقتضباً للعولمة من فوق والمشاكل التي تسببها للبشر والبيئة. ثم انه يصف مسار الرحلات التي تمكنت خلالها مختلف الدوائر الانتخابية من تحدي العولمة من فوق والتلاقي في حركة مشتركة للعولمة من تحت.

فصل «قوة الحركات الاجتماعية (وشرها)» يبحث في طبيعة الحركات الاجتماعية ليكتشف كيف تستطيع حركة على غرار العولمة من تحت أن تؤثر ربما بشيء بالغ القوة مثل العولمة من فوق. كما أن هذا الفصل يتفحص كيفية نشوء الحركات الاجتماعية، وكيفية ارتباطها أولياً بالفئات البائسة، وكيفية تغيير علاقات القوة، وكذلك الأفخاخ التي تواجهها.

فصل «مستويان، ثلاثة، ومستويات عدة» يلقي نظرة على العلاقة بين العولمة من فوق والسلطة الحكومية. وهو يتفحص ماهية نوع التكوين الذي ينبثق للإدارة العالمية، ويبحث المشكلات التي تنتج عن قيام حكومة عالمية أو

بالعودة إلى السيادة الوطنية التقليدية، ويقترح بديلاً متعدد المستويات.

فصل «معالجة التناقضات ضمن الحركة» ينظر في كيفية تمكن حركة العولمة من تحت، من التعامل مع تناقضاتها. وهو يتفحص القضايا موضوع الجدل مثل: التوتر القائم بين حماية البيئة وتلبية الاحتياجات البشرية، واحتياجات البشر المتناقضة في البلدان الغنية والفقيرة.

فصل «عالم للربح ـ ولكن لماذا؟» يلقي نظرة على الرؤية المشتركة الناشئة من العولمة من تحت، ويبحث سبب حاجة هذه الرؤية لأن تتخذ شكلاً محسوساً في برنامج مشترك قابل للتطبيق، ويصف كيفية تكوين برنامج من هذا القبيل.

فصل «مسودة برنامج عالمي» يقدم للقارئ صيغة واحدة ممكنة لبرنامج مشترك ناشئ للعولمة من تحت.

فصل «التنظيم الذاتي من تحت» يتفحص نشوء شبكات الحركة الاجتماعية التعاقدية ومنظمات العمل المستندة إلى جماعات الولاء، ويقيّم أماكن قوتها ونقاط ضعفها. وهو يلقي نظرة على علاقة هذه الأشكال بالحركة بأكملها ويبحث في طرق تعزيز الحركة من الناحية التنظيمية.

obeikandl.com

فصل «ما من حركة هي جزيرة» يستكشف كيفية العلاقة التي يجب أن تقوم بين العولمة من تحت وحلفائها، وعامة الناس، وحق معاداة العولمة، والسياسات الانتخابية والحكومات، والنزعة الإقليمية، والذين من شأنهم إجراء إصلاحات معتدلة في النظام الراهن.

فصل «أصلحوا الأمور وإلا فسنخربها» يلقي نظرة على التفاعل بين مبادرة الحركة واستجابة النخبة، مبيناً كيف يمكن استخدام المراهنة على الناس في التغيير الاجتماعي.

«خاتمتنا» تتضمن إجمالاً للأهمية التاريخية لحركة العولمة من تحت.

•

إن العولمة غير قابلة للتراجع، وهي أيضاً، في شكلها الراهن، غير قابلة للديمومة. وما يليها هو أمر أبعد ما يكون عن التحديد. قد يكون حرباً من الجميع ضد الجميع، أو سيطرة قوة عظمى وحدها على العالم، أو قيام تحالف طاغ بين النخب في العالم، أو كارثة بيئية على نطاق العالم، أو مزيجاً ما من كل ذلك. ان العمل البشري، أي ما يختار الإنسان أن يفعل، يمكن أن يؤدي دوراً في اختيار أي من هذه الوجهات المستقبلية وأي وجهات منها أدعى إلى الأمل.

الاختزالات المعتمدة في الكتاب

AIDS	أعراض نقص المناعة المكتسبة (إيدز)
AFL - CIO	اتحاد العمال الأمريكي - مؤتمر المنظمات الصناعية
CEO	كبير المسؤولين التنفيذيين
CONGOS	المنظمات غير الحكومية المختارة من قبل بعضها بعضاً
DAN	شبكة العمل المباشر
FTAA	منطقة التجارة الحرة في الأمريكتين
EU	الاتحاد الأوروبي
G - 7	مجموعة الدول السبع
G - 77	مجموعة الدول السبع والسبعين
G - 8	مجموعة الدول الثماني
GDP	الناتج المحلي الإجمالي
GEO	البناء العضوي الذي جرت هندسته وراثياً
GNP	الناتج الوطني الإجمالي
HIPC	البلدان الفقيرة المثقلة بالديون
ILO	منظمة العمل الدولية
IMF	صندوق النقد الدولي
LDCS	البلدان الأقل تطوراً

obeikandl.com

NAFTA	إتفاقية التجارة الحرة لشمال أمريكا
MAI	الاتفاقية المتعددة الأطراف حول الاستثمار
NLC	لجنة العمل الوطنية
NGO	منظمة غير حكومية
OECD	منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية
PNTR	العلاقات التجارية العادية الدائمة
PP21	الخطة الشعبية للقرن الحادي والعشرين
UN	الأمم المتحدة
UNCTAD	مؤتمر الأمم المتحدة حول التجارة والتنمية
UNDP	برنامج الأمم المتحدة للتنمية
UNEP	برنامج الأمم المتحدة للبيئة
WDCS	البلدان المخطئة في تطورها
WTO	منظمة التجارة العالمية

obeikandl.com